على عهد الامير

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرام البستاني

وقد يكون من الابناء ضحايا في سبيل آبائهم
من حيث لا يعلمون

الفصل التاسع

مصاب جديد (تابع)

— وبعد ان القى الامير ذاك النداء ، ركض جواده هاجماً على صاحب العلم فارداه بضربة واحدة . فتراجع عند ذاك حماة العلم اذ رأوه يهوي الى الحضيض . فحاول المنلا اسماعيل ارجاعهم عبثاً ، واذ رأى موج عسكرنا الزاحف لا يرده حاجز ولا توقفه عقبة ، اختار الحياة على العز فلوى عنان جواده ، واطلقه في ذاك المرج الفسيح . اما الامير فكان فؤاده يغلي حنقاً على المنلا اسماعيل لما ظهر من خيانته في تركه نصرة رجال الجزار وانصرافه الى خدمة عبد الله باشا ، ولم يشأ له النجاة فاسرع على اثره ونحن وراءه . ولكننا في سرعتنا تلك لم ننتبه الى رجل من العدو كان مختبئاً وراء صخرة مصوباً بندقيته الى رأس الامير جهجاه ، حتى اذا قرب منه اطلقها وهرب .

فاخترقت الرصاصة الكوفية ، واذا بذاك الرأس المحبوب ينقلب الى الوراء . فتلقيناه على صدورنا وارجعناه الى المعسكر ، فغسلنا الجرح البليغ وضمدناه على قدر الامكان ، وحملنا الامير الى بعذران . فعاش يوماً واحداً استعاد صوابه بضع ساعات في اثنائه . فاوصى الست سعدى ببدور وبك ، وترك لكما كل امواله بعد ان برأ ذمة الامير بشير مما له عليه من المال . واوصى للكنيسة

الضيعة وللفقراء بعشرة اكياس. ثم ودّعنا واوصانا جميعاً بالصبر ، والانصراف الى ما به خير البلاد. وتوفي وفاة القديسين بين يدي الخوري يوسف.

وفي اليوم الثاني اقيمت له مناحة لم اشهد مثلها في حياتي . ولا اقوى على ان اصفها لك...

وكانت العبرات قد استبقت الى عيني فرحات فمنعته عن متابعة الحديث. واجابتها عبرات غانم ، فصرفا عدة دقائق لا يسمع بينهما الا اصوات التشيج. حتى تجلد غانم فقال :

— والقاتل ؟

— قبض عليه في الليلة نفسها في وادي المجدل ، وكان رجلاً من النكدية. فقُتل حالاً مع كل من وقع في ايدي رجالنا من العسكر. ولمّا لم يشفوا غليلهم من الاعداء ، مرّوا على قرية البترونة ، في الزبداني ، فأحرقوها بكاملها ، وعادوا الى قب الياس ، فالى بعذران وكلهم يترحم على الامير جهجاه.

واذ عرف الامير بشير ان قاتل الامير جهجاه احد رجال النكدية ، وكان صدره يتدفق حقداً عليهم لما اظهروه من اساليب الخداع ، وانواع العداوة له ، اقسم ، في مناحة الامير جهجاه ، بالله العظيم وبتربة الفقيد الكبير ، انه يقتل خمسة عشر شيخاً من النكدية.

فحنى غانم رأسه متأسفاً ، وقلب شفتيه يائساً ، وقال بصوت يكاد يكون لهاثاً :

— وما نفعُ الانتقام ؟ ...

وبعد فترة سكون لم يجسر فرحات على قطعها ، تحوّل غانم الى احدى زوايا غرفته ، فاخرج من صندوق قديم ربعَ ورق ، وقلماً ، ودواةً مستطيلة. وشرع يخطّ كتاب تعزية الى بدور. فلم يقوَ الّا على كتابة ثلاثة اسطر ضمّنها ، بكل بساطة ، بعض ما يشعر به من الأسى الضارب الى اليأس ، ومن الحزن الذي لا يخفّفه سلوان. فكانت كلماته اشبه بلوعة النعي منها ببلسم التعزية. ثم ناول المكتوب فرحات وتمتم :

— الى الاسبوع القادم !

فودّعه هذا قائلاً :

— ان شاء الله !

* * *

مرّت ساعات طويلة على غانم وهو في جلسته لا يتقلقل ، حيناً يهوي برأسه على مسند الديوان ، وحيناً يحمله بين يديه . وافكاره ثائرة مضطربة كالامواج المتلاطمة تحت اسوار القلعة تُسمع زفيرها المائج من خلال النوافذ ؛ وخواطره متشعبة متكسرة كالبروق في الليلة العاصفة تنشب من الافق الى الافق فلا تلبث ان تتقطع وتتلاشى في طيّات الغيوم . تارة يفزع الى ما تركته المصائب في قلبه من تشبثٍ بالحياة ورغبةٍ في مغالبة الدهر ، فيسكن الى الامل بفرج قريب ؛ وطوراً يحدّق الى الخطب فتتجلى له الرزيئة بكل ما فيها من هول وروعة ، فتضمحلّ آماله ويستسلم الى اليأس . يذكر حيناً تلك الأويقات التي كان يصرفها في حمى جدّه العزيز ، او يقضيها في صحبة عمه الامير جهجاه ، او في محادثة بدور المملوءة غبطة وسروراً ، فينبسط جبينه المتجعد قبل الاوان ، ويفترّ ثغره الذي ختمته الاحزان بمرارة الاسى ، ويلمع في عينيه الجامدتين قبس الحياة . ولكن سرعان ما كانت تظهر الحقيقة فتبدّد اوهام ذاك الخيال ، كما تتبدّد قطع الغمام اذ تنفخ فيها هوج الرياح فتذرّها هباء منثوراً . فينتبه واذا بجدّه المحبوب مضطجع في ضريحه ، واذا بعمه العزيز مضرّج بدمه ، واذا ببدور سابحة بدموعها ، واذا بتلك الايام السعيدة تمرّ سراعاً وتبدل بها ايام التعاسة والشقاء .

ساعات طويلة مرّت عليه وهو في تلك الحال . فلم يشعر بالظلام يحتلّ غرفته ، وبالليل يجلب كلّ شيء امام عينيه ، وبالنعاس يغلّف جفونه فيخفق برأسه على المسند . وكانت تلك الصدمات المتعدّدة قد انهكت منه ذاك الجسم الناحل ، واتعبت ذاك القلب الحساس ، فنام نوماً عميقاً تقطعه الاحلام السوداء ، حتى نفذت اشعة الشمس خلال النوافذ ، فافاق يستعيد تذكارات اليوم السابق ويا لها تذكارات مؤلمة !

* * *

على ان في القلوب الكبيرة مستودعات من الصبر لا تفتح الّا في اشد المصائب ، وكنوزًا من التجلد لا تظهر قيمتها الغالية الّا في اهول الخطوب . وان في النفوس الكريمة عواطف تهيب بها آن الرزيئة فترفعها من حضيض الاستكانة الى اوج الأنفة ، فتبدو شامخة متمرّدة ، منصرفة عن اثارة الشفقة في قلوب الناس ، تفضّل ضبط الحزن القاتل في حنايا الضلوع على الظهور بمظهر الضعف وطلب التعزية.

هذا ما اهاب بفاتم اذ انتبه لحالته في صباح اليوم الثاني . وزاده رغبة عن الشفقة انه غريب في ديار لا يهتمّ سكانها به ولا بما يصيبه . فانف من الذلّ للدهر ، وشمخ على الرزيئة ، فدفع الحزن الى اقصى قلبه ، وردّ الدمع الى ما وراء جفونه . وخرج يجول في سراي الباشا ، وعلى شفتيه ابتسامة ضئيلة ، وعلى محيّاه مظاهر عدم الاهتمام.

ولكنه لم يكن يخلو في المساء الى غرفته ، حتى تهيج به تلك التذكارات المؤلمة ، وقد ضبطها طول النهار ، فينفجر صدره بالأنّات المتواصلة ، وتتدفق اجفانه بالدموع المسترسلة. فيستسلم للحزن ، ويتحوّل ، بشريعة ردّ الفعل ، ذاك التجلد الجبّاري الى ضعف صبياني لا يقوى معه على تهدئة عواطفه ، فيقضي الليل في البكاء والنحيب . . .

وكان ، في تلك الساعات المؤلمة ، يرقب رجوع فرحات عسى يحمل اليه ما يبرّد شيئاً من لوعاته ، فيلتهي مقدّرًا سير رسوله ساعةً فساعة ، حاسباً انه قد يكون ترك بعذران في ساعة كذا ، فوصل الى جزين في كذا ، فتركها في كذا وهبط مرج بسري . . . الى آخر ما هنالك من التقديرات التي لم تكن تصحّ غالباً ، فكان يراجعها مجدّدًا ساثرًا مع فرحات بالفكر من اضيعة الى ضيعة ، ومن جبل الى واد ، حتى كانت تبلغ منه التخيلات مبلغاً عظيماً ، فيتصوّر احياناً ان فرحات قد وصل ، فيهمّ بان يفتح له الباب ، فلا يسمع سوى صوت الريح تصفر من خلال الاقفال ، وهدير الموج يتصاعد من وراء الجدران. فيعود يائساً الى مضجعه ، مراجعاً تقديراته السابقة.

* * *

ولبث غانم بعد الأيام حتى كان فجر اليوم السابع ، وهو يوم الموعد ، فقام باكرًا . ولم يجسر على الخروج مخافة ان يأتي فرحات فلا يراه ، فيتأخر عن سماع ما يعزّيه وينشطه . فظلّ في غرفته يحسب الساعات الطويلة دون جدوى ، حتى كان الاصيل فصار بعد الدقائق ، وقلبه ينبض لكل حركة يسمعها ، وعيناه ترقّبان لكل شبح يتراءى لهما عن بعد ... ولكن كأن الاقدار شاءت معاكسة المسكين حتى في ابسط امانيه ، فانقضى ذاك النهار ، وانقضى ذاك الليل ، ولم يسمع حسًا لفرحات .

وكذلك مرّ اليوم الثاني ، واليوم الثالث ، فالرابع ، فالخامس . وغانم يجدّد آماله كلّ صباح فيلاشيها المساء . الى ان مرّ اسبوعان ، واذا به يسمع جلبة ، قبيل الفجر الاول . وكان طول الانتظار قد ارهف سمعه ، وحدّد بصره ، فاطلّ من نافذته ، فرأى جيشًا من العساكر يدخل المدينة . فحدّق اليه فما لبث ان عرف ، من هيئة بعض جنوده وشاراتهم ، انه جيش الجزّار الذي ارسله لنصرة الامير بشير . فاستبشر اذ لم يعد يشكّ في قدوم فرحات .

ولم يخطئ ظنّه ، هذه المرّة ، فما مرّت دقائق حتى كان فرحات بين يديه . فصاح به ، والفرح يدافع الأسى في فؤاده :

— وكيف قوي قلبك على ان تتأخر اسبوعين ، وتتركني في هذه الحالة دون شفقة ولا رحمة ! لقد قنطت من قدومك حتى صممت على ان ارجعك عندما تصل ، لانه لم يبقَ لي حاجة اليكم ! ...

فتبسّم فرحات ابتسامة العطف ، وارخى جفونه ، ثم تناول يد ابن مولاه فقبّلها معتذرًا ، وقال :

— العفو يا سيدي ! لم يكن هذا التأخر بارادتي ، وانت اخبر بقلب فرحات . ولكنني أُجبرت على السير مع عسكر الجزّار ...

— وايّ معنى لقدوم هذا العسكر ؟

— معناه ان سيدنا الامير بشير قد انتصر نهائيًا فطهّر البلاد من المناوئين . وردّ الجيش الى الجزّار شاكرًا .

— واين مقرّ الامير الآن ؟

— في دير القمر . وقد دخلها بعد ان خضعت له البلاد جميعها . وارجع والي طرابلس عسكره مخذولاً من اميون .

— الحمد لله !

ثم التفت الى فرحات وقال بصوت خافت :

— اجلس وخبّرني بالتفصيل عن كل ما حدث . وقبل كل شيء ، كيف حال الست سعدى ؟ وبدور ؟

فامتثل فرحات . واخذ يفصّل حوادث قصر بعذران مُثنياً كل الثناء على همة بدور ، وعلى تجلّدها الذي ادهش الجميع . فانها ظهرت بمظاهر الرجال تجاه تلك المصيبة الفادحة .

ثم اخرج كتاباً منها الى غانم . فقضّه هذا ، واذا فيه كثير من التشجيع على حمل المصيبة ، والتعزية عن مصاعب الاغتراب بالاتكال على الله والثقة بعنايته .

ولما انتهى من تلاوته التفت الى فرحات وقال :

— اخبرني بكل صراحة عن حالة الست سعدى . وان بدور لا تقول شيئاً صريحاً عنها .

— لا تزال الست سعدى طريحة الفراش . وقد أثّر فيها كثيراً مقتل الامير جهجاه ، ولم تظهر شيئاً من هذا التأثير شفقةً على ابنتها ، بل تجلّدت . وطال عليها العذاب فلم يقوَ جسمها الضعيف على حمل هذا المصاب العظيم ، فانحلّت قواها ، وبقيت تحو الاسبوع في حال غير مرضية . على انها تحسنت قليلاً في هذه المدة الاخيرة . ولكنني لا ارى هذا التحسن لمدّة طويلة . فلونها الترابي ، وحركاتها المضطربة ، ونظراتها الجامدة التي كثيراً ما تنبيه عن محدّثها لا تطمئني الى الصحة . وعلى كل فالأمل بالله يصنع ما يشاء !

فحنى غانم رأسه ، وقد هاله تراكم الرزايا . واطرق مفكراً بما عسى تكون مشيئة الله . ثم اجال عينيه حائراً ، ولم يجب .

(لها بقية)